مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X
المجلد 06 / العـدد: 02 (2021)، ص 304– 314

دفيد هيوم ومبحث في الفاهمة البشرية

David Hume: An Enquiry concerning Human Understanding

د.آسيـا واعر *، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية. جامعة عنابة. assia.ouar@univ-annaba.dz

تاريخ الاستلام: 05 /05/2021م تاريخ القبول: 23 /06/ 2021 تاريخ النشر: 31 /12/ 2021

ملخص:

يعتبر المبحث الإبستيمي مبحثا أساس في الفكر الفلسفي، ذلك أنّ العقل وإن كان يسعى إلى إدراك الحقائق العلمية والمعرفية بشقيها الفيزيقي والميثافيزيقيي، فإنه قد اهتم أيضا بالبحث عن دقائق الأمور وبمختلف تفاصيلها عن حقيقة هذا الإعمال وآلياته، ولقد احتل السؤال المعرفي مركز الدراسات الفلسفية منذ عصور ماقبل الميلاد، لينقسم الرأي فيها إلى نزعتين أساسيتين : النزعة العقلية القائلة بالتصورات القبلية وبإعطاء الأولوية للعقل والذهن باعتبارهما يحتكمان على وظائف البرهنة والإستدلال الأمر الذي يتجاوز حدود الحسي، ونزعة امبريقية مناهضة تقول بالتصورات البعدية ولاوجود للكلي القبلي المجرد وأن البحث فيه مجرد عبث لاطائل منه، وورقتنا البحثية هذه تهدف إلى أبرز المواقف التي أتت قي هذا المجال وتحديدا مع دفيد هيوم وما جاء في مصدره" بحث في الفاهمة البشرية" الذي بين فيه كيف أنّ المعرفة إنما هي معرفة بالحواس بالدرجة الأولى ليتبلور البحث بتابعاتها والمتمثلة في الإنطباع والفكرة والخبرة والتعود مما شكل أساس المعرفة عنده؛ إنّ البحث في الإشكال المعرفي لدفيد هيوم اقتضى منا اعتماد المنهج التحليلي مما أسفر عن نتائج بينة ناهض فيها الموقف العقلاني بالحجة العقلية والبرهنة المنطقية.

كلمات مفتاحية: المعرفة، عقلي؛ حسي؛ انطباع؛ خبرة، تعود.

.

Abstract:

The epistemological researcher is a fundamental researcher of philosophical thought. So it was mental and sensory, our research paper aims to illustrate what David Hume said in this area, and this is from her book "**An Enquiry concerning Human Understanding** Research in Human Understanding." Research into the cognitive forms of David Hume required us to adopt the analytical approach, resulting in clear results in which rational attitude is challenged by mental argument and logical demonstration

Keywords: Knowledge; mind; sense; impression; experience; get used.

.

* د.آسيـا واعـر –جامعة عنابة.

. مقدمة:

يشكل البحث في آليات المعرفة النصيب الأوفر من الدرس في الحقل المعرفي الفلسفي، هذا الأخير الذي شمل شتى المجالات والميادين الفكرية، ورغم أنه قد بدأ –وحسب اعتقادنا– فكرا في المباحث الكزمولوجية وهذا في البحث عن أصل الكون ومادته فضلا عن البحث في الوجود بشقيه الفيزيقي والميثافيزيقا، لينتقل مع سقراط وحسب ما قال شيشرون من السماء إلى الأرض وهذا في البحث في ما يشكل إنسانية الإنسان وتحديدا في الجانب الذي يشكل الإنسانية وهو الجانب الأكسيولوجي، ليتساءل بعدها حول إشكال أساس وهو كيفية وإمكانية التحصيل العلمي والمعرفي، فالإنسان قد حقق ولا –يزال– تطورا في جميع المجالات والميادين العلمية، هذا الأخير الذي يناهض أنصاره الفكر الفلسفي باعتبار أنّ قضاياها لاتصل إلى نتائج يقينية قطعية وإنما تبق تدور في حلقة مفرغة بنتائج متباينة متضـ اربة بين أصحابها، وهذا إشكال لايتسع المقام إلى تحليله، وإنما كرد على هؤلاء في أنّ الفلسفة هي التي تمد العلم بقضايا كما أنها تبحث في آلية الإعمال والنشاط العقلي الذي يمارس في العلم. وهذا ما تهدف ورقتنا البحثية هذه إلى تبياننه وهذا من خلال طرح إشكال أساس يتمثل في سؤال الفهم عند دفيفد هيوم أحد رواد النزعة الإمبريقية والتي ناهضت بشدة النزعة العقلية في تحليلها للإشكال، من خلال أضخم مشروع فكري أصدره في القرن الثامن عشر؛ إنّ طبيعة دراستنا اقتضت اعتماد المنهج التحليلي والذي بدوره يتضمن منهجي النقد والمقارن مما أسفر عن نتائج بينت الرؤية الفلسفية لدفيد هيوم في بحثه عن آليات الفاهمة البشرية وفي كيفية إفراز عصارتها المعرفية ومنه إفي التأسيس للعلمية، تحليلا ضمن نقاطا تالية::

2. الفلسفة وسؤال المعرفة

عرف الشيئ أدركه بالحواس أو بغيره والمعرفة إدراك الأشياء وتصورها، ولها عند القدماء عدة معان حددها جميل صليبا في معجمه أنّ منها إدراك الشيء بإحدى الحواس، ومنها العلم مطلقا تصورا كان أو تصديق، ومنها إدراك البسيط، سواء أكان تصورا للماهية أو تصديقا بأحوالها[1]. إنّ المستقرئ لتاريخ الفكر الفلسفي يجد أنّ البحث الإبيستيمولوجي قد أخذ النصيب الأوفر من الدرس والبحث، وهذا منذ عصور ماقبل الميلاد، إلى يومنا هذا إذ يمكن تتبع مراحلها مما كان من نتاج لأساطينها

1.2 أفلاطون Platon (427– 347) ق.م. – ونظرية ا لإستذكار –:

كان أفلاطون أول من قال بالتصورات القبلية وهذا ضمن نظريته في الإستذكار حين ذهب إلى أنّ النفس الإنسانية "معن البدن قبل وجوده، ولما كان وجودها هذا متحررا من المادة وقيودها تحررا كاملا، أتيح لها الإتصال بعالم المثل أي بالحقائق المجردة وحين اضظرت إلى الهبوط من عالمها المجرد للإتصال بالبدن والارتباط به في عالم المادة، فقدت بسبب ذلك كل كانت تعلمه من تلك المثل والحقائق الثابثبتة، إلا أنها تبدأ باسترجاع إدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية، لأنّ هذه المعاني والأشياء كلها ظلال وانعكاسات لتلك المثل والحقائق الأزلية الخالدة في العالم الذي كانت تعيش النفس فيه"[2] ، فالنفس إذن كانت حسب أفلاطون سباقة في الوجود عن البدن متواجدة في عالم المثل وجودا مستقلا ، ثم انتقلت إلى العالم المادي وإذا بها نسيت ما شاهدته في ذلك العالم، فإذا رأت هذه الجزئيات المحسوسة تذكرت معارفها السابقة، على أن تكون المعارف كلية في عالم المثل جزئية يشوبها النقص في عالم الشهادة، فالمعرفة عند أفلاطون تذكر لما كان من كليات في عالم المثل.

2.2 أرسطو Aristotle (384–322) ق.م. – من الحسي إلى العقلي –:

لم يستسغ أرسطو ما جاء من تحليل لأستاذه في هذا المجال، فذهب يرسي دعائم فكره الواقعي في مقابل المثالي، إذ يرى أنّ "كل إنسان بطبعه مشوق إلى المعرفة، والدليل على ذلك أننا نشعر بلذة من عمل جواسنا، فعلاوة على ماتقدمه الحواس من نفع، فإننا نحبها لذاتها خاصة حاسة البصرالتي تعلو على الجميع، فهي مفضلة، ليس فقط لما تقوم به من عمل، بل لأننا حينما لانرغب في القيام بأي عمل نفضل النظر للأشياء بالبصر. والسبب في ذلك أنّ البصر يأتينا بقدر أكبر من المعلومات التي تجعلنا ندرك الفرق بين الموجودات"[3]، وهنا نلمس النزعة الحسية لأرسطو إذ "أكد أنّ طريق المعرفة يجب أن يبدأ مما تعطيه لنا الحواس، ومن خلال الفهم الجيد يمكن تبرير وتأكيد الوقائع الملاحظة" [4]، فراح أرسطو يحلل كيف تتم آليات المعرفة عن طريق الحواس آخذا بعناية فائقة درس الحواس الظاهرة من بصر وسمع وشم وذوق ولمس، لينتقل إلى الحديث عن الحس المشترك الذي تتفق فيه الذوات المدركة على أن تكون الملكات العقلية من خيال وذاكرة دورا فاعلا باعتبار أنها تمثل قوى المعرفة الإنسانية، إلا أنّ البحث في الحقل المعرفي لايقف عند حد الحواس لأنه ينعدم لأساسيات الإثبات والبرهنة وهذا ما يجعل من المعرفة الحسية في أدنى مرتبة من مراتب المعرفة، إذ هي معرفة ظنية المعرفة التي يحد منها العقل ويفصل فيها، وهذا ما يعتبره أرسطو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا، لأنه وبالمعتقد الأرسطي أننا نعيش لكي نفكر في شيئ ولكي نتعلم وهنا جاء بتحليل واف للعمليات العقلية الأمر الذي يؤدي بنا إلى القول بأنّ الموقف الأرسطي من المعرفة هو موقف زاوج فيه بين بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي، فإذا كانت الحواس هي نهج معرفة الوقائع الخارجية وأساس تكون انطباعنا الحسي الأولي حولها فإن العقل يضع المبادء والقوانين اللازمة لذلك

3.2. رينيه ديكارت René Descartes (1596–1650)م –وسؤال المنهج –

ديكارت أبو العقلانية الحديثة، وأحد رواد التغيير الراديكالي الذي مس الفكر الغربي، له مؤلفات عديدة: مقال عن المنهج، تأملات ميتافيزيقية، مبادئ الفلسفة الأولى وحديث الطريقة الذي بين أيدينا، مجموع من نتاجه الفكري يدور حول المنهج — الطريقة– الذي يتم من خلاله معالجة إشكالات وقضايا علمية معرفية. ضع ديكارت مصدره حديث الطريقة لقيادة العقل قيادة حسنة والبحث عن الحقيقة في العلوم، والمتأمل في ما وسمه ديكارت يجد نفسه أمام إشكال يطرح نفسه، فيم تتمثل القيادة الحسنة للعقل؟، ولعل هذا الإشكال هو بمثابة المحور الأساس الذي يتمحور حوله الفكر الفلسفي قاطبة، فكما يقول ديكارت أن العقل أعدل الأشياء قسمة — وفي موضع توزعا– بين الناس، إلا أنّ الممارسة العقلية وحسن التوظيف لآلياتها وأدواتها وحده الكفيل بحصول المعرفة اليقينية والحقة، ذلك أنّ عملية التطبيق تسبق الفكر الجيد في حد ذاتها وهذا ما يصرح به في مؤلفه:" **على أنّ تنوع آرائنا لا يحصل من كون البعض أكثر تعقلا من البعض الآخر،، بل من كوننا نسوق أفكارنا على دروب مختلفة، ولا نعتبر الأشياء نفسها، إذ لايكفي أن يكون الفكر جيدا، بل أهم من ذلك أن يطبق تطبيقا حسنا**". ينبه ديكارت في غير موضع مما خطه إلى أننا في الكثير من الأحيان نكون عرضة للخطأ بخصوص الأمور التي تمسنا وإلى أي مدى ينبغي أن نأخذ مأخذ الحذر أحكام أصدقائنا عندما تكون لصالحنا، وكأنّ لسان حاله يقول

كفانا من اجترار فكر الآخر واتباع ما أتى به في شتى الميادين والعلوم، الأمر الذي أدى به إلى وضع طريقته هو ونهجه هو في التفكير والبحث والتقصي عن الحقائق، منبها إلى أنّه ليس بصدد التدريس والتلقين – أي تدريس طريقته هذه- أو الادعاء بأنها الطريق المثلى في التحليل، وإنما غرضه من هذا اظهار الكيفية التي بها تمكن من الدرس والبحث، إنها طريقته ومنهجه الذي أوصلاه إلى نتائج لم يسبق أن وصل إليها أحد، إنه مبدأ الفكر الديكارتي وأساسه. والذي يتلخص في قواعد أربع: قاعدة الجلاء، قاعدة التحليل، قاعدة التركيب، وقاعدة التعديد الأمر الذي أدى به إلى إطلاق العنان للشك المطلق الشك الذي م خلاله أوصله إلى ما كان يصبو إليه وهو – اليقين المعرفي – والذي كان **الكوجيتو – Cogito** المنطلق الأساس إليه[5] .

4.2. إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724–1804)م – ونقد العقل –

ذهب كانط إلى أنّ العقل دائم الدرس والبحث عن الحقائق العلمية والمعرفية، وينتهي به الأمر دائما إلى وضع نتائج من خلال ممارسات وأنشطة عدة، الأمر الذي أدى إلى البحث في آلية هذا النشاط وفي أدواته التي يستخدمها، ثم إلى أي مدى نضمن صحة هذه الآلية كما نضمن صدق نتائجها؟، هنا وجد نفسه يخط "نقد العقل المحض" أي نقد العقل الخالص عن كل تجربة، ولعل مما يتبادر إلى ذهن قارئ هذه السطور وقوعنا في تناقض ، فكيف لكانط ذا النزعة العقلية أن ينتقد العقل، وهنا ننبه أنه انتقد العقل بالعقل، وأنه ذو نزعة عقلية محضة أي خالصة، وتفاصيل آراءه في هذه القضية كانت حول مجموع القضايا المتعلقة بالمعرفة وبآلياتها، من ضبط الفرق بين المعرفة المحضة والإمبرية، والإشارة إلى استحالة خلو المفاهيم من المعارف القبلية، كما تحدث عن العلوم العقلية النظرية وعن الديالكتيك الترسندنتالي أي في الاستعمال المنطقي للعقل وفي الاستعمال المحض له في أفاهيمه المحضة، وفي نقيضة العقل (...) إلخ من القضايا التي فصل فيها بدقة وصرامة، والتي يصعب تحليلها لأنّ المقام لا يتسع لهذا، إلا أنه يمكن أن نوجز عموم ما أتى به في مصدره هذا، وتحديدا في توفيقه بين النزعة العقلية والنزعة التجريبية، إذ رأى أنه يستحيل استبعاد أي جانب منها في المعرفة، لأنّ العالم الطبيعي ملئ بالقوانين التي يقع على العقل مهمة الكشف عنها، ثم أنه بين كيف أنّ للعقل حدودا يجب عليه أن يقف عندها وألا يتجاوزها، وإلا كانت ممارساته في تأسيس مغالطات ومتناقضات بدل من تأسيسه لليقين والحقيقة، وهنا نقف عند هذه الحدود التي قال بها والتي يقف عندها العقل، ماهي؟ وفيم تتمثل؟؛ تمحور الإشكال الرئيسي للفلسفة الكانطية حول مدى وثوقنا في قدرة العقل على تحصيله **المعارف الصادقة واليقينية** ، إذ ذهب كانط إلى أنّ هذا ممكن وحاصل في العلوم الرياضية، وكذا في العلوم الفيزيائية، باعتبار أنّ أحكامهما أحكاما يقينية، تحمل يقينها في ذاتها، ذلك أنّ كل منهما يقدم ضمانا لصحة أحكامه، وقد حلل هذا في مصدره بشكل كاف واف أي في تحليله للأحكام التحليلية والأحكام التأليفية الأولانية، وهي أحكام الرياضيات والفيزياء؛ إلى هنا نجد العقل يمارس نشاطه بشكل عادي، لكن ما إن ينتقل إلى القضايا الميثافيزيقية إلا والأمر ينقلب على عقبيه، ذلك أنّ كانط ينفي تماما أن يكون للميثافيزيقا ضامنا يضاهي في دقته ما نجده في العلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية، لأنّ الحقيقة تضيع مع ضياع الضابط الذي يضعه العقل ويسير بمقتضاه، فهل نفهم من هذا أنّ كانط يرفض البحث في القضايا الميثافيزيقية، وهذا ما قال به الكثيرون وذهبوا إليه؟. نرى غير هذا حجتنا ما ذهب إليه كانط في مصدره فهو م يرفض البحث في الميثافيزيقا، وإنما قنن لهذا البحث حتى يكون مشروعا، أي حتى لا يكون البحث فيه بحثا ارتجاليا غوغائيا

فوضويا وإنما يكون بحثا يضاهي في دقته وفي نهجه وفي صدق ويقين نتائجه ما نجده في العلم، وهذا بالاعتماد على أسس ومبادئ فصل فيها في مصدره هذا [6].

3. دفيد هيوم David Hume (1711-1776)م والنزعة الإمبريقية

يعتبر البحث في الفاهمة البشرية بحث في الممارسات والأنشطة العقلية، كما يعتبر تحليلا لعملياته ولآياته، وإذا كانت هناك آراء قد أدلت بدرسها للقضية نجد أنّ دفيد هيوم هو الآخر قد جاء بموقف رآه فريدا من نوعه زهذا في نزعته الإمبريقية المذهب الذي يرى أنّ الخبرة الحسية هي المصدر الوحيد للمعرفة، في مقابل المذهب العقلاني القائل بإسناد ما نعلم سواء عن العالم أو عن أنفسنا إلى التصور القبلي الذي يقصد به الأفكار الفطرية ومبادئ الذهن، والأفكار الفطرية هي كل فكرة مستقلة وبعيدة عن التجربة الحسية، وقد قال بها ديكارت، وهي حسب رأيه مجموع من البديهيات التي نسلم بها دون برهان وتكون معرفتها بمجرد النظر في طبيعتها، أفكارا حدسية تدرك بطريق مباشر، تجدر الإشارة إلى أنّ النزعة الإمبريقية أتت في مقابل النزعة العقلية فإذا كانت هذه الأخيرة تقول بالتصورات القبلية وأنّ المصدر الوحيد للمعرفة هو العقل، وما نود أن نلفت الإنتباه حوله أنّ حقيقة الجدل لاتكمن في الفصل بين العقل وحواسه الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى ولأي عاقل أنّ القضية تتضمن خللا ما، فكيف يتأتى أن نفصل بينهما وهما يكملان قوام الذوات الإنسانية، الإشكال الرئيسي يكمن في أنّ الذهن يستقبل الحواس أما الإعمال فلايقوم به إلا العقل وحده، والإعمال هو ضبط المفاهيم المجردة التي يعجز الحس تمام الإعجاز عن أن يأتي بها، وإنما يقوم بوظائفه في التركيب بما يملكه من مبادء ومقولات فالمبادئ والمقولات من وضع العقل لاالحس ، الذهن يقوم بعملية الربط بين الصفات الأولية وصفات ثانوية، فالنزعة العقلية تقول بمنبعين للتصورات "أحدهما الإحساس والآخر الفطرة، بمعنى أنّ الذهن البشري يملك معان وتصورات لم تنبثق عن الحسن وإنما هي ثابتة في صميم الفطرة،"[7] ()، فكانت بذلك أفكارا واضحة بداتها في العقل البشري ولا يكون الحس في هذه النزعة سوى مصدرا لفهم التصورات والأفكار البسيطة، لذا كانت المعاني والتصورات لدى هذه النزعة مستنبطة من للنفس استنباطا ذاتيا من صميمها، ولا تنبثق أبدا من الحواس، الأمر الذي ينقضه أصحاب النزعة الحسية عامة ودفيد هيوم خاصة وتفصيل هذا في مايلي:

1.3 أصل الأفكار : الإنطباع الحسي والفكرة

يضرب المبحث الأول أعماق نظرية المعرفة التي شغلت الفكر الإنساني لحقب من الزمن، كيف يحصل الإنسان المعرفة، و كيف يصل إلى هذا الكم الهائل منها؛ ذهب دفيد هيوم إلى أنّ المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانية هي الحواس، و لا يقتصر الأمر على الحواس الظاهرة بل يوظف أيضا الحواس الباطنة في تحصيل المعارف، ذلك أنّ الحواس الباطنة تجعلنا نحس ما يجيش في أنفسنا من الداخل من انفعالات حتى إذا مازال المؤثر المسبب لهذه الانطباعات، بقيت آثارها هذا الأثر الذي يمثل الفكرة عند هيوم. إذ يرى أنّ "كل إدركات العقل

الإنساني ترجع إلى حسين متميزين هما: الانطباعات impressionو الأفكار idées، و الانطباعات هي وحدها الأصلية أما الأفكار فما هي إلا نسخ من انطباعاتنا". أي أنّ الأفكار هي مجرد انعكاسات باهتة للاحساسات على مرآة أفكارنا. لهذا فإنّ الانطباعات أقوى من الأفكار و أشد تأثيرا و حيوية، و باستخدام الذاكرة و الخيال يمكن أن نرتب أفكارنا ، ينكر هيوم أن تكون لدينا أفكارا عامة مجردة، و يذهب إلى أنّ جميع أفكارنا هي عن أشياء جزئية يمكن النظر فيها بطريقة جامعة و ذلك عن طريق ألفاظ كلية.

و على ذلك فلن تجد بين أفكارنا فكرة واحدة لا يمكن تعقبها إلى الانطباع الحسي الذي كنا قد أحسسناه من قبل إحساسا مباشرا . يستطيع الفكر أن يركب من حصيلته الحسية ما شاء من من مركبات تجئ و كأنما هي لا تشبه كائنات الواقع في شيء، مما يوهم المتعجل أنّ للفكر مصادر غير المعطيات الحسية، لكن هذه المركبات الذهنية لو حللناها لوجدناها دائما ترتد إلى عناصر مما جاءنا عن طريق الحواس بطريق مباشر، فقد يصور الإنسان لنفسه مثلا جبلا من ذهب ثم يتساءل أين عن وجود هذا في الواقع لكنه في الواقع لم يصنع سوى أنّ ركب ماتلقاه من حواسه سابقا إذ رأى الجبل و رأى الذهب أيضا ولم يفعل سوى أن ركب هذا بذاك. و قس على هذا أمورا كثيرة . ومن الحجج التي تعزز هذا المو قف القائل بأنّ أي فكرة ترد إلى أصولها الحسية حجتان هما:

الحجة الأولى: جاءت في تحليل أفكارنا –أيدياتنا– يدع دفيد هيوم إلى أن نتأمل في الفر المركب الذي قام به الذهن فمهما بلغ تركيبها وسموهافإن مآلها إلى الفكرة البسيطة هذه الأخيرة التي يكون مصدرها الأول والأخير الإحساس أو الشعور، بل حتى من الأفكار الميثافيزيقية فهي مشتقة من الإحساس أو الشعور ففكرة الله من حيث تعني كائنا عاقلا حكيما رحيما لايتناهة، إنما تولدت في عمليات ذهننا الخاص حين نضيف خاصيات الرحمة والحكمة[8]

وأما الحجة الثانية: فأنّ من يفقد حاسة إلا ويفقد معرفة معها فلو حصل أنّ عيبا في العضو أفقد امرأ نوعا من أنواع الإحساسات فسنجد أنه قلما أن يكون قادرا على امتلاك الأفكار المتناسبة معها. فلا يمكن لأعمى أن يعطي أي فكرة عن اللون ولا الأصم أي فكرة عن الصوت، أعد للواحد وللآخر الحس الذي ينقصه وستفتح. بفتحك مسربا جديدا للإحساسات مسربا للأفكار أيضا، والأمر لاينطبق على المجال الخارجي فحسب وإنما حتى فيما يختلج الأنفس من معارف فهو راجع في أساسه إلى الشعور إذ لايمكن لرجل ذي آداب لطيفة أن يكون أدنة فكرة عن عناد الثأر أو القساوة. ولايمكن لقلب أناني أن يتصور بسهولة قسم الصداقة والكرم[9]. فالمعرفة تتألف من الإحساسات التي هي مزيج من الأثر الحسي والفكرة معا؛ على سبيل المثال عندما أنظر إلى لوحة ملون ثم أقفل عيني، فإني سأحتفظ بتلك اللوحة اللونية التي كنت تلقيتها، غير أنّ صورة اللوحة في الحالة الثانية تكون أقل وضوحا من الحالة السابقة، الأولى هي الأثر الحسي أما الثانية فهي الفكرة،، من هنا يقسم هيوم المدركات الإنسانية إلى قسمين رئيسيين: الآثار الحسية والأخيرة هي الأولى نفسها ولكنها خالية من المؤثرات التي أحدثتها، ولهذا فإنه لاتنشأ في العقل أفكارا إلا إذا سبقتها آثارا حسية فالإنطبع الحسي هو المصدر الذي نقيس به صحة الفكرة والتي أتت عن طريق الحواس والفكرة تكون على درجة من الصواب أو الخطأ بحسب تطابق الإنطباعات — أما فيما يتعلق بتلك الإنطباعات التي تنشأ من الحواس فإنّ سببها النهائي في أي رأي لايمكن تفسيره تماما من قبل العقل البشري وسيكون من المستحيل دائما أن نقرر على وجه اليقين ما إذا كانت تنشأ على الفور من الموضوع أو من إنتاج إبداع قوة العقل،

أو مشتقة من الخالق إلى وجودنا، معنى هذا أنّ الفكرة التي لم تنطبع في حواسنا لاوجود لها أصلا والإصرار على وجوده مسبقا في عقولنا هو ضرب من الخيال[10].

2.3 تداعي الأفكار العنوان:

ونقصد بها كيفية ارتباط الأفكار فيما بينها، أو تداعي المعاني إحداث علاقة بين مدركتين لإقترانهما في الذهن بسبب ما، قضية الإقتران بين الأيديات ، تبدو متداخلة في الذاكرة أو المخيلة بدرجة معينة من الترتيب والإنتظام، وأنّ المخيلة تجري بانتظام بل كان هناك دائما اقتران بين مختلف الأفكار التي يتلى بعضها بعضا وهذا بين واضح إذا ما تأملنا أحلامنا ونحن نياما، ثم ما نتلاقاه من الآخر وجب أن يكون مسترسلا في سياق محكم حتى إذا خالف هذا ندرك وعلى الفور وجود القغرات الوالحرق الذي حدث فيه، وكل هذا وغيره دليل على أنّ الأفكار البسيطة المتضمنة في الأفكار المعقدة ترتبط فيما بينهان بمبدأ كلي ما، له تأثير متساو على كل البشر[11]، فاللوحة تذهب بأفكارنا طبيعيا إلى الأصل (مبدأ التشابه) وذكر المنظل في المبنى يؤدي طبيعيا إلى التحري عن المنازل الأخرى أو الكلام عليها (مبدأ التجاور)، ، وإذا ما فكرنا في الجرح نكاد لانستطيع الامتناع عن التفكير في الألم الذي يليه (السبب والأثر)؛ . ماهو المبدأ الذي وحد مختلف الأفكار واحدة إلى أخرى من دون توقف حتى نجعل المبدأ عاما قدر الإمكان[12].

3.3 شكوك ريبية بصدد عمليات الفاهمة

يذهب دفيد هيوم إلى تقسيم ميع موضوعات العقل البشري إلى ضربين هما: علاقات الأفكار، والوقائع. أما علاقات الأفكار فهي تضم علوم الهندسة والجبر والحساب، فكل إثبات يكون يقينيا إما بالحدس أو بالبرهان، والقضايا من هذا النوع يمكن اكتشافها بإعمال الفكر وحده من دون الخضوع في شيئ لما يوجد في العالم، بل حتى لو لم يكن في الطبيعة أي دائرة أو مثلث ستظل الحقائق التي برهنها إقليدس محتفظة بيقينها وبداهتها، وأما الوقائع فلا يمكن التيقن منها بالطريقة عينها، أن نبحث عن ماهية طبيعة تلك البينة التي تجعلنا نركن إلى أي وجود حقيقي أو أي واقعة فيما يتعدى شهادة حواسنا الحاضرة أو سجلات ذاكراتنا، يذهب هيوم غلى أنّ جميع التعليلات حول الوقائع : لماذا حدثت هذه الواقعة؟ إنما هي قائمة على علاقة السبب والأثر, وبواسطة هذه العلاقة لوحدها إنما تتعدى بينة ذاكرتنا وحواسنا، . واقعة تقابلها واقعة أحرى مثال الصديق والساعة الموجودة على سطح جزيرة قفراء، إذن كل تعليلاتنا المتعلقة بالواقعة هي من الطبيعة عينها، وهنا يفترض باستمرار أن ثمة اقترانا بين الواقعة الحاضرة وما نستدل عليه منها. وحين لايكون هناك شيء يربطهما معا يكون التعليل غير مستقر بالمرة،[13] ومنه إلى طرح الإشكال التالي: **كيف نتوصل إلى معرفة السبب والأثر؟**

لقد ألف العقل الإنساني أن يرجع تحليل هذا الإشكال إلى العقل، إلا أنّ دفيد هيوم ينكر هذا تماما ويرى بأن هذه القضية أي معرفة العلاقة بين السبب والأثر لا تتحصل بأي حال من تعليلات قبلية بل تتولد بأسرها من الخبرة حيث نجد أنّ أشياء معينة تترافق بعضا مع بعض بشكل مستمر ، هي بمثابة فضية عامة لاتقبل أي استثناء، لنقدم شيئا ما لامرئ على أتم ما يمكن من قوة العقل والاستعدادات

فإن كان الشيء جديدا كل الجدة بالنسبة إليه فإنه سيهجز عن اكتشاف أي سبب من أسبابه أو أي أثر من آثاره عن طريف تفحص خاصياته الحسية بأكبر قدر من الدقة. فرغم تمام الملكات العقلية لم يكن بإمكاننا أن نستدل من سيولة الماء وشفافيته على أنها تخنقه ولا من ضوء النار وحرارتها على أنها قد تحرقه، فليس ثمة من شيء يكشف بخصائصه التي تظهر للحواس لا عن الأسباب التي تحدثه ولا عن المسببات التي يتولد منها ولا يمكن لعقلنا البتة من دون مساعدة الخبرة أن يطلع بخلاصة بصدد وجود حقيقي أو واقعة ما [14]،بالعقل بل بالخبرة إذن الأسباب والمسببات حسب دفيد هيوم لا تنكشف، وأنّ أكبر جهد للعقل البشري يسعى إلى إرجاع المبادئ التي تُحدث الظاهرات الطبيعية إلى أكبر قدر من البساطة، وحل الآثار الجزئية الكثيرة في قليل من الأسباب العامة بواسطة تعليلات مستمدة من التمثيل والمشاهدة والخبرة. لكن أسباب هذه الأسباب العامة نحاول عبثا اكتشافها. ليتواصل الطرح في إشكالات لانجد لها حلا كالبحث في أساس كل الخلاصات المستمدة من الخبرة؟ وهذا هو السؤال المحير.

لقد أبقتنا الطبيعة حسب رأي دفيد هيوم على مسافة كبرى من أسرارها ذلك أنها قد أعطتنا فقط معرفة بعض الخاصيات السطحية عن الأشياء في حين تخفي عنا القوى والمبادئ التي يخضع لها تأثير تلك الأشياء خضوعا تاما. فحواسنا تعلمنا بلون الرغيف ووزنه وقوامه لكن لا الحواس ولا العقل يمكنهما ذات مرة أن يعلمانا بالخاصيات التي تجعله صالحا لغذاء الجسم البشري وقوته. وقس على هذا أمورا كثيرة ورغم مع عدم فهمنا للقدرات وللمبادئ الطبيعية نرعم حين نرى خاصيات حسية مماثلة لتلك التي خلرناها فلو قدم لنا جسم ذو لون وقوام مماثلين للون الرغيف الذي أكلناه من قبل ولقوامه، فإننا لن نتردد في أن نكرر التجربة، و سنتوقع بيقين من هذا الجسم أن يغذينا ويقوتنا على نحو مماثل، وهنا نكون أمام نقلة للذهن ونقلة للفكر فيم يتمثل أساسها؛[15]، فنحن لا نرى غير الاتصال والتوالي، فما الذي يفسر القول بوجود ارتباط ضروري بين الوقائع المتصلة المتوالية؟ إنها العادة الناشئة عن التكرار المستمر لنفس الاتصالات المتوالية، وهي عادة قد خلقت ارتباطا شبيها بالارتباط الموجود بين اللفظ والموضوع الذي يدل عليه، إنّ ضرورة الرابطة العلية لاتوجد إلا في عقلنا ، ونحن الذين ننقلها ونخلعها على الأشياء الخارجية، وليست لدينا أية فكرة عن العلة والمعلول غير فكرة عن أشياء كانت مرتبطة دائما، وفي جميع الأحوال الماضية بدت بدت غير منفصلة عن بعضها البعض وليس في وسعنا النفوذ إلى سبب هذا الارتباط. وإنما نحن نلاحظ هذه الواقعة فقط ونجد أنه تبعا لهذا الارتباط المستمر فإنّ الأشياء تتحد بالضرورة في الخيال فإذا حضر انطباع الواحد، كونا نحن في الحال فكرة زميله المرتبط به عادة ، ليكون بذلك التعود هو المرشد الأكبر للحياة البشرية، إنه المبدأ الوحيد الذي يجعل الخبرة نافعة لنا، وهو وحده الذي يجعلنا نتوقع في المستقبل، سلسلة من الحوادث المشابهة، لتلك التي ظهرت في الماضي، ومن دون تأثير التعود سوف نجهل تماما كل مسألة واقعية خارج ماهو ماثل مباشرة للذاكرة والحواس، ولن نعرف البتة كيف نوفق المسائل في سبيل الغايات، ولا كيف نستعمل قوانا الطبيعية لإحداث أثر من الآثار. وسيكون ذلك نهاية فورية لكل فعل ولمعظم النظر. [16]، لتبقة أهم ما يشكل أساس المعرفة عند دفيد هيوم هي: الإنطباع الحسي، الفكرة– الخبرة – التعود ، كل متكامل لايمكن أن تكون هناك أي معرفة من دون واحد منهها.

4. في المبحث الأكسيولوجي

و هو ثالث أجزاء الرسالة، و الإشكال الذي يطرحه هيوم هنا هو الإشكال الذي يطرح أساسا في البحث في حقل الخطاب الأخلاقي ألا وهو على أي أساس نقيم أحكامنا الخلقية ؟ على أي أساس نصنف أمرا في مصاف الفضيلة و نصنف أمرا آخر في حيز الرذيلة، هل تكون هذه الأحكام من قبل جاز بها العقلي العلمي و المنطقي الواجب التسليم بها كقولنا أنّ مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين، أم ترجع أحكامنا في ذلك إلى الجانب الوجداني و العرف المألوف و المعاش. يتابع هيوم تحليله لمبحث القيمة الخلقية وفقا لما أتى من مبدأ و مذهب حس، فيرى أنّ الحكم الخلقي قائم على الذوق و على العاطفة، لكن لا بد للعقل أن يحلل الموقف الذي نحن بإزائه لكي يتاح لنا الإلمام بعناصره فنقبله أو نرفضه

يستبعد هيوم أن نرجع الأحكام الخلقية إلى منطق العقل وحده لأن المعرفة العقلية هي مجرد إدراك و الادراك وحده لا يقتضي عملا، في حين الجانب الخلقي يعنمد أساسين هما إرادة و عمل. لذا يذهب هيوم أنّ اللفظتين المسيطرتين في الحقل المعرفي الأخلاقي خير و شر يكونان صالحتان عندما نكون بصدد الحكم على الأفعال فقط، أما الأفكار العقلية فوجب أن نوظف مصطلحي حق و باطل.

إنّ الأحكام الخلقية تشمل دائما على معنى الوجوب، فيجب على الإنسان أن يفعل كذا و ألا يفعل كذا، و يستبعد هيوم أن يكون الوجوب مستمدا من أحكام العقل ، ولا بد لها من مصدر آخر خصه هيوم في حاسة سماها – حاسة الرضا– الإحساس بالرضا عندما يتأمل فعلا معينا بحيث لا نستطيع أن نجد وراء الرضا شيئا آخر سوى أنه شعور نحسه، و بهذا فقط نحكم على الفعل بأنه خير أو أنه شر : الخير إحساس باللذة و الشر إحساس بالألم. وعلى هذا يبني هيوم مذهبه الأخلاقي على ما أتى به في مذهبه الحس، وهو الشعور بالرضا أو الشعور بالسخط اتجاه أفعال معينة، على أن يقوم العقل بتحليل المواقف التي نحن بصددها لنتبي حقائقها فيزود فينا ذلك الشعور – إما رضا و إما سخط[17].

5. خاتمة:

يعتبر المبحث الإبيستيمولوجي أبرز مباحث الفكر الفلسفي ذلك أنه يبحق في العمليات العقلية وفي آلياته وأدواته، وهذا ما يشكل غلية العلمي والمعرفي، إذ يسائل العقل نفسه عن النهج الذي يخول له نتائج صادقة خالية من التناقض والأخطاء، ولقد انفسم الدرس في هذا الحقل إلى نزعتين أساسيتين هما النزعة العقلية والنزعة الحسية وكل أتى بالحجة المعقلية والبرهنة المنطقية على آراءه ومواقفه ليوفق كانط بينهما ويذهب إلى نزعة توليفية، إنّ ورقتنا البحثية هذه ليست دراسة في العموميات وهذا في سرد ما كان من مواقف في تحليل هذا الإشكال بقدر ما كانت دراسة جزئية حول موقف واحد من أبرز أعمها ألا وهو "دفيد هيوم" وما حلله في مصدره "بحث في الفاهمة البشرية" والتي بين فيها كيف أنّ المعرفة هي معرفة امبريقية بالدرجة الأولى، ولايمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هناك معرفة من دون الحواس الظاهرة فضلا عن الوقائع الخارجية، ليشكل الإنطابع الحسي أو مايعرف بالأثر الحسي وما ينتج عنه من أفكار أساسا أوليا لأصل ما تختزنه الذوات من معارف، هذا من جهة ومن جهة أخرى تشكل الخبرة والتعود أساسا لتداعي الأفكار، ومهما يكن من

أمر فإنّ ما أتى به دفيد هيوم في مصدره "بحث في الفاهمة البشرية" قد أفاد الفكر الإنساني بمنطلقات عدة في تأسيس وضبط نهج البحث في حقل الفاهمة البشرية.

6. قائمة المراجع:

- Aristote , (1952) **Metaphysics**, Translated by W.D. "Great books of the Westzrn Worhd" W.B Pub, Encyclopaedia Britannica
- الصدر، محمد باقر، (2009)م، **فلسفتنا**، ط3، بيروت، دار التعارف للمطبوعات.
- النشار، مصطفى. (1995)م. **نظرية المعرفة عند أرسطو**، ط3، القاهرة: دار المعارف.
- رديكارت، رينيه. (2008)م. **حديث الطريقة**، تر: عمر الشاربي، ط1، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية.
- كانط، إيمانويل. (د–ت). **نقد العقل المحض**، تر: موسى وهبة، (د–ط)، بيروت: مركز الإنماء القومي.
- محمود، زكي نجيب. (1956). **نظرية المعرفة**، (د–ط)، مصر: موسسة هنداوي.
- محمود، زكي نجيب. (د–ت). **رسالة في الطبيعة البشرية لدفيد هيوم**، (د–ط)
- هيوم، دفيد. (2008)م. **مبحث في الفاهمة البشرية**، تر: موسى وهبة، ط1، بيروت: دار الفارابي.

7. هوامش:

1. جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ج2، ص 392

2. محمد باقر الصدر، **فلسفتنا**، ط3، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2009م، س 100

2009، صفحة 100

3Aristote , Metaphysics, Translated by W.D. "Great books of the Westzrn Worhd" W.B Pub, Encyclopaedia Britannica, 1952, P499.

4. مصطفى النشار، **نظرية المعرفة عند أرسطو**، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1995م، ص 40

5. أنظر تفاصيل هذا في:رينيه ديكارت، **حديث الطريقة**، تر: عمر الشاربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008م

6. أنظر تفاصيل هذا في: إيمانويل كانط، **نقد العقل المحض**، تر: موسى وهبة، (د–ط)، مركز الإنماء القومي، بيروت، (د–ت).

7 . محمد باقر الصدر، م،س ، ص 102

8. دفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، تر: موسى وهبة، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2008م، ص40

9. المصدر نفسه، ص41

10. زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، د–ط، موسسة هنداوي، مصر 1956، ص 38

11. المصدر نفسه، ص، ص 45–46

12.المصدر نفسه، ص47

13. المصدر نفسه، ص51

14.المصدر نفسه، ص52

15.لمصدر نفسه، ص 59

16. لمصدر نفسه، ص 73

17. زكي نجيب محمود، رسالة في الطبيعة البشرية لدفيد هيوم